أثر الغول

باسل طلوزي

مثلما تدلّ البعرة على البعير، في وسعنا، أيضاً، أن نستدلّ على الغول بآثار ضحاياه. وأمّا الغول الجديد الذي لا نبحث عنه فهو رفعت الأسد، شقيق الرئيس السوري حافظ الأسد، وعمّ الرئيس الحالي. هذا ما تقوله وثائق الأحوال المدنية، في الأثر، غير أنّ ما يقوله الضحايا مغاير تماماً، فثمة «آثار» أخرى قديمة وحديثة لهذا الغول، تقول إنه «جزّار حماة»، تلك المدينة السورية الوادعة التي دمّرت على رؤوس ساكنيها عام 1982، وارتكبت فيها أبشع مذبحةٍ جماعية، أجهزت على نحو عشرين ألف ضحية. وفي الوثيقة التاريخية ذاتها، ثمّة معلومة تفيد بأن الغول نفسه كان مؤسّس «سرايا الدفاع» السورية وقائدها، وهي وحدة شبه عسكرية خاصة، أنيطت بها المهام القذرة، كالاغتيالات، وكتم الأصوات، والتشبيح، وأنها أصبحت لاحقًا نواة الحرس الجمهوري، عندما دبّ الخلاف بين الشقيقين حافظ ورفعت، فتمّ عقد صفقة بين الطاغيتين، تضمّنت رحيل الثاني عن سورية، والامتناع عن لعب أي دور سياسي، لقاء ملايين الدولارات، وراتب شهري ضخم.

وفي الأثر الثاني للغول، يقودنا الخيط إلى مليونير منفيّ، استقرّ بعد أسفار متعدّدة، في باريس، باعتبار أنّه «طاغية حالم» يعشق العطور الفرنسية، ويستهويه النظر إلى العالم من برج إيفل، ليكتب «قصائده» هناك، بيد أن كل هذا العالم المخمليّ الساحر، والثراء الفاحش اللذين في وسعهما خلب أعتى العقول، لم يفلحا في تغيير أخلاق الطاغية الطريد الذي راح يحاول لعب دور «المعارض المنفيّ» من بلده، سيّما إبّان اندلاع ثورة الربيع السورية، عندما بدأ يعلن صراحة، وفي مقابلات تلفزيونية، انحيازه لثورة الشعب، وإدانته استبداد ابن شقيقه ونظامه الدمويّ، غير أنّ أحداً لم يأخذه على محمل الجدّ، سيما لدى تتبع «أثره» من حماة إلى بلدة بسانكور الفرنسية، التي ناشد رئيس بلديتها، رئيس بلاده إيمانويل ماكرون، أخيراً، الالتفات إلى مصير نحو 80 سوريّاً تركهم وراءه رفعت، لدى مغادرته فرنسا، عائدًا إلى بلاده، في صفقة «عكسية» هذه المرّة، قوامها السماح بعودة العمّ نظير امتناعه عن القيام بأي دور سياسيّ. وقد جاءت هذه الصفقة لإنقاذ العمّ المهدّد بالسجن في فرنسا بتهم عديدة، أبسطها «غسل الأموال». تأرجح رفعت الأسد بين صفقتين مريبتين، غادر في الأولى بلاده، وعاد في الثانية إلى بلاده. أما المحتوى المشترك بينهما فهو «الامتناع عن لعب أي دور سياسي». والحال أنّهما صفقتان تقطران بالريبة منذ البداية، فما كان يمنع الأسد الأب من الإجهاز على شقيقه وهو في دمشق، سيما أنّ سبب الخلاف مطلب رفعت بولاية العهد، ما يعني أنّ له مآرب في أعلى قمة الهرم السياسي لنظام الحكم، وهو أمرٌ يعدّ خطّاً أحمر لحافظ الأسد الذي يريد حصر الحكم في أبنائه، فكيف استقام للرئيس الطاغية المعروف بأحاسيسه الميّتة أن يصفح عن أخيه، ويسمح له بالمغادرة مع كلّ تلك الأموال الطائلة؟

وفي المقابل، في الصفقة الثانية، هل كان بشار الأسد مضطراً لقبول عودة عمّه حتى من دون لعب دور سياسيّ، وهو الذي أباد نصف شعبه لـ«جرائم» أقلّ بكثير مما فعل العمّ، وهو يظهر معارضاً شرساً على شاشات التلفاز؟ ألا تكون فضائح هذا العمّ وسجنه في المنفى أهون على بشار من عودة هذا المشاغب الذي برهن أنّه لا يلتزم بالعهود والمواثيق، عندما أخلّ بالتزامه في باريس ولعب دوراً سياسيّاً أكبر منه بكثير؟ أسئلة كثيرة لا تخلو من الريبة، ومن صفقتين متعاكستين لا يزدردهما حلق، إلّا إذا كان الدور مرسوماً ومتفقاً عليه خارج الصفقات المدوّنة كلها. غير أنّ ما يهمّ من بين كلّ هذه الصفقات المريبة هم أولئك الضحايا للجلّاد نفسه، أو الأثر الدامي الذي تركه خلفه في حماة وعاد إليه، فضلاً عن الأثر الآخر المتمثّل بضحاياه في فرنسا الذين تُركوا ليقطنوا في إسطبلات الخيول بلا ماء ولا كهرباء ولا طعام، فقد تركهم الغول يواجهون مصيرهم الأسود وحدهم، بعدما انتهى دورهم بعودة الغول إلى وكره الأول. أما بشأن الطغاة، فمن قال إنّهم لا يملكون قلوباً قابلة للصفح، سيما إذا كان صفح طاغية عن طاغية؟

هل طوت 2021 صفحة الربيع العربي؟

عمر المرابط

مطالبةً بالحرية والكرامة، مناهضةً للفساد والاستبداد، قامت الثورات العربية التي مر عقد على اندلاع شرارتها. انطلقت على حين غرة من أهل السلطة والحكم والنفوذ في البلدان العربية، فاجأتهم، ولولا عنصر المفاجأة لما استطاعت إطاحة أنظمة شمولية قاسية، ولما أجبرت أخرى على أخذ إصلاحات سياسية عميقة، كما اضطرت غيرها إلى ردود فعل تباينت بين استعمال العصا والجزرة. ولكن مهما قلنا ومهما اختلف التقييم، فإن أهم ما أحدثته الثورات العربية إشاعة الأمل في نفوس المواطنين العرب بإمكانية القيام بالإصلاح والتغيير، وانبعاث روح الكرامة في شعوب مقهورة، مرّ عليها زمان طويل، كانت لا تقدر فيه أن تنبسّ ببنت شفة.

من 2011 حتى 2021، مرَّ عقد مُرّ، انفرط فيه العِقد ولم يُحترم العَقد، كان عقدا مريرا خيّب الآمال، وترك وراءه مآسي كبيرة، لكنه حقق إنجازاتٍ كبرى، أهمها أنه سجّل للتاريخ انتفاضة الإنسان العربي الذي ثار ثأرا لكرامته، ورفع رأسه منادياً بحريته. أما انفراط العِقد، وهو، لمن يعرف خبايا الأمور، لم يكن إلا مجرد عقد تجميلٍ لأنظمةٍ تريد تجميل صورتها وتحسينها داخليا وخارجيا، فلم يأت فجأة كما تشكّل فجأة، فقد تناثرت لآلئه وحبّاته من شدّة الجذب والجر بين الفرقاء في كل بلد، ناهيك عن التدخلات الخارجية التي كانت بالمرصاد لكل المطالب التي تهدد مصالحها. أما العَقد فمن الطبيعي ألا يحترم، لأنه لم يكن مبنيا على طيب خاطر، فالدولة العميقة التي اضطرّت للاختفاء والرجوع إلى الوراء حافظت على مواقعها، انطوت وانبطحت استرضاءً لا رضا، قبل أن تثب وثبتها وتنقض على فريستها مثل اللبؤة، ظن بعضهم أن الثورة لا رجوع عنها، وأن الشعب قال كلمته الفصل، وأن من ثار مرةً سيثور تتْرى، المرة تلو الأخرى، فأخطأ مرتين، الأولى عندما اعتقد أن مسار الإصلاح مُحصَّن آمن، والثانية عندما وثق في الكلام المعسول وآمن به، فخُدع وانخدع. قد لا نجازف إذا قلنا إن سنة 2021 طوت، ولو إلى حينٍ، صفحة الربيع العربي،

ولو لم تُطو حقا لما رأينا عودة مساراتٍ سياسيةٍ عفا عليها الزمن، ولما شاهدنا رجوع سياسات حكومية ترجع بنا القرن الماضي، ولما تجرأ الحكام على اتخاذ قراراتٍ مرفوضة شعبيا، بل وغير مقبولة دوليا، غير آبهين ولا مكترثين إلا بمن يملك قوة الإعلام والمال والسلاح، خصوصا مع الملل والسأم الذي ضرب الشعوب وهي ترى تحوّل الربيع إلى خريفٍ تضرب رياحه العاتية بلداننا قيل إنها كانت آمنة مطمئنة، ولو تحت القهر والطغيان، وقيل للشعوب أن اختاروا بين الفتنة والدمار أو الأمان والطمأنينة، وكأن الحرية والديمقراطية صنوان للأولين متعارضتان مع الأخيرتين. وهكذا تبخر حلم التحرّر والازدهار الذي ساور عديدين من مواطني بلدان العالم العربي، وانتصر الفساد والاستبداد.

دارت الأيام، وعاد المواطن العربي إلى حقبة الماضي سياسيا، ورحل الإسلاميون عن الحكم، وذهبوا من دون أخونة الدولة ولا خيانتها، بل كانوا أكبر حلفائها وصمّام أمانها، حتى هدأت الزوبعة، تحالفوا مع من خانوهم وخذلوهم، وساندوا من ارتدّ عليهم واستعملهم، تنازلوا حتى أنهم غيروا مواقفهم في شؤونٍ كبرى، وتخلّوا عن مواقعهم في مراكز شَتّى، ظنا منهم أنهم بذلك سيكسبون ثقة الآخرين ووُدّهم، لكن لا التنازلات شفعت لهم، ولا هي أبقت رصيدهم لدى مواطنيهم، تنازلوا ليبقوا فخسروا، ولو لم يتنازلوا لبقوا حتى ولو خسروا، لأن الأحزاب السياسية قد تخسر الانتخابات وتعود، لكنها إذا فقدت جوهر ما كانت تدافع عنه لن تعود. وهذا ما حصل تحديدا للأحزاب الاشتراكية في المغرب أو فرنسا، على سبيل المثال، تخلت عن مبادئها الكبرى، فتخلى مناصروها عنها من دون رجعة. وفي هذا عبرة لمن نادى بالحرية والكرامة، وناهض الفساد والاستبداد، ودعا إلى الديمقراطية واحترام إرادة الشعب، كان عليه أن يضع خطوطا حمراء لا يهبط دونها، وإلا فقد رأسماله ورصيده من الثقة والاحترام، وهذا ما وقع لبعضهم، أصبح حالهم حال المنبتّ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

(كاتب مغربي في باريس)

نحو إعادة التفكير في النظام السياسي في مصر

محمد توفيق

تتركّز أهمية مصر في عدة أبعاد جيوسياسية وتاريخية، ودائمًا ما ينظر إليها دولةٍ محوريةٍ وفاعلة في العالم العربي والشرق الأوسط، ويرتبط بها المحيط العربي ارتباطًا كبيرًا في أحداث سياسية واجتماعية وفكرية كثيرة، فعلى الرغم من أن موجة ثورات الربيع العربي كانت قد عمّت عدة بلدان عربية، إلا أن انتكاس هذه الثورات وتشكل محور الثورات المضادة وُلد من رحم انقلاب 3 يوليو (2013) في مصر، لتعود مصر مجدّدًا، بمعاونة حلفائها في محور الثورات المضادّة، إلى واجهة التأثير والفاعلية بمشروع وأد الديمقراطية الوليدة آنذاك.

الإشكال الذي واجه تياراتٍ عدّة داخل الجماعات العلمية العربية بالتحديد هو الانحصار عدة سنوات داخل ثنائية «الثورة – الانقلاب»، والرهان الضمني على حتميةٍ تاريخيةٍ لفشل الحكم العسكري، سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي، الأمر الذي جعل التراكم المعرفي التاريخي والسياسي لهذه الحقبة في مصر متأثرا، بدرجةٍ كبيرةٍ، بتحيزاتٍ فرضتها عاطفية هذه اللحظة التاريخية، وأفق تفكير رغائبي مهجوس بلحظة سقوط الانقلاب.

بعد سبع سنوات من حكم الرئيس المصري، عبد الفتاح السيسي، بدا أن من الضروري إعادة التفكير في طبيعة هذا النظام وبنيته وموارد شرعيته وبقائه، وهل هو نسخة محدثة من دولة يوليو (1952)، أم أنه نظام يحمل تجديدات وأدوات سياسية وقانونية واقتصادية كثيرة؟ مثّلت الفترة التي تلت انقلاب يوليو (2013) في مصر مرحلةً من التصلّب حول الموقف من النظام السياسي الناشئ، وبقي الأمر كذلك سنوات، حتى بدا أن نظام الرئيس السيسي مستقرٌّ إلى حد بعيد على المستويين، السياسي والاقتصادي.

برز مجددًا الحديث عن دور الجيوش العربية في السياسة، عقب الإخفاقات المتكرّرة التي منيت بها الموجة الأولى من ثورات الربيع العربي، ووضوح شبكات تحالف الثورات المضادّة في المنطقة العربية، وبات من الواضح أن الجيوش العربية أضحت رقمًا أساسياً في معادلة السياسة، وهو الأمر الذي ساعد كثيرًا في عودة المقاربات الأمنية إلى واجهة المعالجات داخل المجتمع العلمي.

ينتبه عزمي بشارة مبكرًا إلى إشكاليات المعالجات التبسيطية لهذا الابتلاء العربي، ويقدم تبصّراته النقدية عن علاقة الجيوش بالسياسة في السياق العربي في محاضرته الافتتاحية لمؤتمر «الجيش والسياسة في مرحلة التحوّل الديمقراطي في الوطن العربي» في أكتوبر/ تشرين الأول 2016، وعنوان «الجيش والحكم عربياً: إشكاليات عربية» وطبعت مفردة في كتاب مستقل صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. ومثّلت المحاضرة الإشارات النقدية المبكرة إلى أزمات المجتمع المدني والسياسة في مصر، حيث نبّه بشارة إلى أن الجيش سنحت له فرصة الهيمنة على الحكم، واستغل عدم قدرة القوى السياسية على الاختلاف تحت سقف مؤسّسات منتخبة ديمقراطياً، ومحاولات عدد منها كسبه لصفّها ضد الأخرى، إذ مع تصاعد الأزمات في ظل حكم الرئيس محمد مرسي، بدا أن الجيش المصري هو الثابت الوحيد بين قوى سياسية متغيرة وغير قادرة على الاتفاق، وجميعها يلجأ إلى أن يكون الجيش بجانبها، ثم قام الجيش بخطوته، بعد أن حرّك الجماهير كي تطالبه بذلك.

الجيش، وفق بشارة، مؤسسةٌ تعمل وفق مصالحها، وتميل إلى تصوير مصالحها في مراحل الانتقال كأنها مصالح وطنية عامة، كما أنها لا تعمل وفق نظام أفكار، فهي مؤسّسة منظمة أعلى من حزب أو حركة تحمل أفكاراً. كما أنه، بصورة ما، استطاع توصيل المجتمع المصري إلى حالةٍ من الفرز بين خصوم سياسيين، وتمكّن، بطريقة أو بأخرى، من اكتساب غطاء مدني لبلوغ شكل العملية النهائية التي قام بها في يوليو/ تموز 2013، وابتعد عن جدل الديمقراطية ومعارضيها ليعطي لعملية الانقلاب شكلًا ديمقراطياً كونه انصياعًا من الجيش لرغبة الشعب.

يثير عزمي بشارة النقاش في ضرورة إعادة النظر في طبيعة النظام السياسي الذي يقوده السيسي الآن في مصر، ويدعو بشكل واضح إلى أهمية تجاوز التفكير المحصور في ثنائية الشرعية والانقلاب، وضرورة عدم الوقوف عند لحظة الانقلاب العسكري في 2013. في حلقة «لقاء تفاعلي مع عزمي بشارة حول سوريا ومصر وليبيا واليمن بعد عقد من الثورة» على قناة العربي في فبراير/ شباط الماضي، صرّح بشارة بأنّ أزمة المعارضة المصرية، وبالتحديد جماعة الإخوان المسلمين، أنّها وقفت عند لحظة الانقلاب ولم تتجاوزه عبر سنواتٍ أعقبته. ويرى أنّ جماهير الشعب المصري التي خرجت في 30 يونيو/ حزيران 2013 كانت خليطاً من مواطنين عارضوا بالفعل حكم الرئيس الراحل محمد مرسي وجماعة الإخوان، بالإضافة إلى آخرين كانوا راغبين في حصول الانقلاب العسكري. ويتطلب الأمر، وفق بشارة، أن تعيد المعارضة المصرية النظر في سنوات ما بعد الثورة، سواء جماعة الإخوان وحلفاؤها، أو المعارضة الليبرالية التي دعمت، بشكل أو بآخر، الانقلاب، إذ إنّ مصر هي الدولة العربية الأكثر قدرة على أن تكون الدولة الديمقراطية في المنطقة العربية، وذلك على مستوى الموارد والإمكانات الثقافية والمؤسّساتية والتاريخية.

> يرى عزمي بشارة نظام السيسي قوياً متماسكاً، يمتلك قواعد اجتماعية وسياسات اقتصادية ونموذجاً تحديثياً

وعلى الرغم من أنّ عزمي بشارة يسلّم بأن حكم الرئيس عبد الفتاح السيسي في مصر نظام ديكتاتوري سلطوي بامتياز؛ إلّا أنّه يرى أنّه حالياً نظام قوي متماسك، يمتلك قواعد اجتماعية وسياسات اقتصادية ونموذجا تحديثيا، الأمر الذي يتطلب، وفق بشارة، مساءلة سياساته وبنيته ومآلاته وتفكيكها، حتى نفهم طبيعة هذا النظام وسيرورته. وهو ما كان أكده في كتابه «الجيش والحكم عربيًا» (صدر في 2017)، حيث يرى أن هذا النوع من الانقلابات يتّسم بالاستقرار للأسف، فالجيش المصري ليس مجموعة أو شلة أو أخوية ضباط، بل جيش نظامي يتعذّر أن تعقب انقلاباته صراعات ضباط، فالهرمية التراتبية واضحةٌ فيه تمامًا، وقائد الجيش يصبح في هذه الحالة رئيسًا، وجل ما يمكن أن يحققه هو إجراءات اقتصادية واجتماعية لا تجرؤ حكومة منتخبة على القيام بها، وعيناها على الرأي العام ونتائج الاستفتاءات الشعبية. ولذلك يرى بشارة أنّ تشيلي في مرحلة بينوشيه حققت استقراراً ملحوظاً، ونمواً اقتصادياً، واستمر الحكم فترة طويلة نسبيًا، وانتهى بانفتاح متدرّج على المجالين، الحزبي والنقابيٍ، ثم استفتاءات قادت لتحول ديمقراطي.

وفق بشارة؛ لا يمكن توقع ذلك في الحالة المصرية الراهنة، إلّا أنّ ثمّة حاجة ملحّة للنظر في نموذج الحكم والإدارة الذي يقدمه نظام السيسي. أولاً لفهم أسباب الإخفاق المتكرّر في مساعي التحوّل الديمقراطي في مصر، وثانياً لتجويد العدسة البحثية التي يُنظر من خلالها إلى دولة يوليو 2013، والتي ستكون مولجاً مهماً لبناء التصور الدقيق لتاريخ وصيرورة الخيال العسكري والسياسة في مصر منذ دولة محمد علي وحتى حكم الرئيس عبد الفتاح السيسي.

(كاتب وباحث مصري)

كاريكاتير | **صحافة عالمية**

(الرسام اموريم ـ كارتون موفمنت)

الباغوز والمجازر الأميركية المنسية

مالك ونوس

من المحتمل أنّه لولا ما كشفته صحيفة «نيويورك تايمز» عن المجزرة التي ارتكبتها القوات الأميركية في قرية الباغوز في دير الزور (سورية)، في مارس/ آذار 2019، لطُمست، كما غيرها من مجازر يرتكبها المحتلون بحقّ شعوب يحتلون بلدانها. ولم يعترف الأميركيون بوقوع المجزرة إلّا بعدما نشرت الصحيفة تقريرها عن الحادثة، لكنّهم قالوا إنها كانت مبرّرة، ناكرين العدد الكبير للضحايا المدنيين فيها. ويبدو أنّ الأميركيين عادوا إلى استخدام استراتيجيتهم المعتادة في تكثيف النيران على منطقة ضيّقة ومكتظة بالسكان، بحجّة وجود عناصر من تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) فيها. ومجزرة الباغوز استمرار لسياسة الولايات المتحدة في اقتراف جرائم ضد الإنسانية بذرائع جاهزة دائماً، وقد اقترفتها الآن في سورية المنكوبة بعدد كبير من القوات المحتلة التي اقترفت من المجازر ما جعل المجتمع الدولي يضيق بإحصاء ضحاياها، فيرسلهم إلى النسيان ليهدأ باله.

كانت معركة الباغوز بمثابة المعركة الختامية في حرب التحالف الدولي بقيادة أميركية على تنظيم الدولة الإسلامية، والتي بدأت، في سبتمبر/ أيلول 2014. وتميّزت بتركيزها على الجيب الأخير المكون من عدد من القرى، بعد اندحار التنظيم وفرار أعضائه وتبعثرهم في سورية والعراق، وكذلك انسحاب أعدادٍ منهم إلى مخيم الباغوز الذي كان يضم آلافاً من المدنيين، علاوة على عدد كبير من مقاتلي التنظيم. وكانت قوات سورية الديمقراطية (قسد) تعدّ العدّة للانقضاض على المخيم وقرية الباغوز، منتظرة انتهاء المهلة التي أعطيت لعناصر التنظيم للاستسلام. لكن، وما إن انتهت المهلة حتى أغار طيران التحالف على المنطقة، مستخدماً الصواريخ والقنابل بكثافةٍ، أدت إلى تفحُّم جثث أعداد كبيرة من المقاتلين ومن المدنيين الذين لم يغادروا المنطقة. وتحدّث صحافيون أجانب دخلوا المنطقة بعد انتهاء المعركة عن مشاهداتهم، وعن أكوام من الموتى، وعن رائحة الجثث المتفحّمةً المنتشرة في المنطقة، حيث أحصوا عدداً كبيراً من النساء والأطفال بين الضحايا.

وكتبت الصحيفة في تحقيقها، في 13 نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي، أن الضربة نفذت عبر إلقاء الطائرات الأميركية ثلاث قنابل على تجمُّع كبير من الناس، وأن صور طائرات الاستطلاع المسيّرة أظهرت وجود مدنيين في المنطقة المستهدفة. وعلى الرغم من أن الصحيفة تحدثت عن مقتل 80 شخصاً، لم يكن بينهم سوى 16 شخصاً تأكد انتماؤهم لـ«داعش»، إلّا أنّ العودة إلى الأنباء عن تفاصيل تلك المعركة يومها تؤكد أنّ العدد كان يتجاوز هذا بأضعاف، علاوة عن الحديث يومها عن استخدام التحالف الصواريخ والقذائف في ضرب المنطقة. وقد قدّرت مصادر محلية أن عدد الضحايا يصل إلى 400 من مدنيين وعناصر من التنظيم. وبسبب كثافة عدد قاطني المنطقة واختلاط المدنيين بعناصر «داعش»، ربما يكون العدد أكبر، ومع ذلك، لم يدفع إيراد الصحيفة عدداً أقل القيادة العسكرية الأميركية إلى الاعتراف سوى بمقتل 16 شخصاً، بينهم أربعة مدنيين لا أكثر. وقد أوردت الصحيفة أن ضباطاً أميركيين سابقين كانوا يخدمون في الوحدة السرّية التي أمرت بتنفيذ الضربة قالوا إنّ حصيلة القتلى كانت عالية بشكل صادم، وإنّ ما شاهدوه يرقى إلى جريمة حرب.

تذكّر واقعة الباغوز بوقائع من قَبيل ضرب الحلفاء مدينة هامبورغ الألمانية، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا النازية، للحصول على أكبر ختام ممكن للحرب، ولو كان ذلك فعلاً منافياً للأخلاق بسبب إعلان الخصم استسلامه. وتذكّرنا أيضاً بإغارة ألف طائرة على سبع مدن يابانية بعد استسلام اليابان وتدمير مدينتي هيروشيما وناغازاكي بالقنبلتين الذريتين قبل أيامٍ من إعلان الاستسلام وانتهاء الحرب، وذلك كله من أجل الوصول إلى «الختام الكبير». وبحسب ما ذكر تشومسكي، في كتابه «سنة 501 الغزو مستمر» (دار المدى، بغداد، 1996). اعتماداً على ذلك، تتأكد لنا الآلية التي تعمل وفقها السياسة الأميركية، وتريد دائماً صنع أكبر أثر ممكن من الدمار والقتل لتختتم به حروبها. وبهذا الأثر، تتحقق لواضعي تلك السياسة نشوة الانتصار، التي لا تعادلها نشوة لدى جنرالات لا يتوقفون عن فعل القتل، ما داموا قادرين على ارتكابه. وفي استعراض سيناريو الحروب الأميركية، ومنها حربهم في سورية، يخال للمرء أن الأمر بالنسبة لهم يجري كما صناعة الأفلام في هوليوود؛ مقدّمات وتحضيرات وتحشيد إعلامي، ثم ضربات مباغتة، ليعتلي جنرال أميركي المنبر معلناً الانتصار في حربٍ نظيفةٍ استهدفت الإرهابيين بدقة العمليات الجراحية، بينما في الواقع، يستمر المدنيون بدفع الأثمان طويلاً، والبحث عن أحبّائهم تحت أنقاض منازلهم ومدارسهم، ورهن مستقبلهم لإعادة بناء حياتهم، كما الأمر حالياً بالنسبة للسوريين.

> في استعراض سيناريو الحروب الأميركية، يخال المرء أنّ الأمر بالنسبة لهم يجري كما صناعة الأفلام

(كاتب سوري)

عباس ـ غانتس... نثر الملح في الجرح الفلسطيني

لميس أندوني

هناك خطوات سياسية سيئة، وأخرى بالغة السوء تغرز خناجر جديدة في الجسد الفلسطيني؛ منها زيارة الرئيس الفلسطيني، محمود عبّاس، منزل وزير الدفاع الإسرائيلي، بيني غانتس، الذي يتلذذ بأمر قواته بتجريف البيوت الفلسطينية، وهو قائد العدوان على غزّة، فالزيارة ضربة موجعة للشعب الفلسطيني، مهما كانت الحجج والمسببات. هل أقنع عبّاس نفسه حقاً بأن دخوله بيت مجرم الحرب سيفتح أفقاً أو ثغرة لبدء «طريق سياسي قبل الانفجار»، كما يَدّعي وزير الشؤون المدنية الفلسطينية حسين الشيخ؟ وهل يريد أن يقنعنا بهذه الخرافة السياسية التي جرّبها الفلسطينيون مرّات عديدة، ولا يمكن عبّاس حتى إقناع نفسه بها؟ فالزيارة كانت استجابة لضغوط أميركية تضع العبء على الفلسطينيين بإبقاء الوضع «هادئاً»، فيما تجنب نفسها الضغط على حليفتها إسرائيل بوقف جرائم الحرب ضد الفلسطينيين، وتتفرغ لتوسيع قاعدة التطبيع العربي الإسرائيلي. وفقاً لصحيفة هآرتس الإسرائيلية، سبق الزيارة المشينة تنسيق فلسطيني مع الأردن ومصر والإدارة الأميركية، بغرض لقاء تُشترط به مظاهر الحميمية، بين الرئيس الفلسطيني مع أعداء لا يريدون أي نوع من «السلام»، مهما بلغت مكاسبهم، فالوضع القائم يسمح لإسرائيل بأخذ وقتها بحرية في التنكيل بالشعب الفلسطيني. ولم يكن «التنسيق» الذي تحدّثت عنه «هآرتس» سوى طلب أميركي تحت شعار «خطوات الثقة المتبادلة»، الجملة التي يستعملها المبعوث الأميركي، هادي عمرو، بكل وقاحة منذ توليه موقعه، وتعني عملياً أخذ السلطة الفلسطينية خطواتٍ عمليةً لتنفيس الاحتقان الفلسطيني ومنع الهبّات الفلسطينية المستمرّة من التحول إلى انتفاضةٍ جامحةٍ تعرقل هدوء الحكومة الإسرائيلية ومخططات الإدارة الأميركية.

في اللغة السياسية والعملية، ما تسمّى خطوات «تبادل الثقة» غطاء لابتزاز إسرائيلي مستمر، كما هو الحال منذ انطلاق محادثات «السلام» في مدريد عام 1991، تضع الاعتبارات الأمنية الإسرائيلية، كما تحدّدها تل أبيب، شرطاً لأي اتفاقية أو خطوات توافق عليها مع أي دولة عربية ومع الفلسطينيين الذين أصبحت هذه الشروط في حالتهم، وهذا غرضها أصلاً، وسيلة لإحكام السيطرة على الفلسطينيين، وللتهرّب من أي استحقاقات، من قبيل وقف الاحتلال والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني، والأهم أنها تبدو ناتجة من تفاهم بين طرفين، وليست نتيجة مباشرة للاحتلال وترسانته العسكرية. والتنسيق الأمني ما هو إلا مأسسةٌ لمعادلة فرض الشروط الأمنية الإسرائيلية التي تتحكّم بالسلطة والشعب الفلسطينيين، فهي تستعمل ذريعةً للاستيلاء على الأراضي وبناء الجدار العنصري وطرد السكان من منازلهم واقتلاع الأشجار، ومن «لمّ شمل العائلات» وكل حق إنساني للإنسان الفلسطيني. إذاً، هو في جوهره مأسسةٌ لهذه العلاقة التبعية والمذلّة، ولا يمكن التحرّك من دون استيفاء شروط التنسيق الأمني. وعليه، خضع محمود عبّاس للابتزاز الأميركي، ليبرهن على أن السلطة تقوم بواجباتها، وأنها «شريك حقيقي» في عملية سلام غير موجودة أصلاً.

الغريب، وقد لا يكون غريباً، أن عبّاس، على ضعفه، كان أكثر تماسكاً خلال فترة ولاية الرئيس الأميركي السابق، دونالد ترامب، حتى إنه رفض استقبال المبعوثين الأميركيين، بمن فيهم السفير (السابق) لدى الكيان الصهيوني، ديفيد فريدمان، بعد إعلان الاعتراف الأميركي بالقدس «عاصمة موحدة» للدولة الصهيونية، فترامب كان عدواً واضحاً، لكن السلطة الفلسطينية ترى الإدارة الحالية الأميركية مُنقِذة لها، وتريد أن تصدق الوهم الذي تبيعه لها، خصوصاً أنها اعتمدت في فترة الإدارة السابقة على نصائح وزير الخارجية السابق، جون كيري، الذي أصبح أهم عرّابي تعميق الاتفاقيات التطبيعية العربية الإسرائيلية، وأحد شروطها قبول الرواية الصهيونية ومشروعية المستوطنات.

ويبدو أن هناك أسباباً أخرى للقاء عباس مع غانتس، فوضع السلطة ضعيف، ليس فقط نتيجة استهتار الحكومة الإسرائيلية بها، بل وأيضاً خوفاً من حركة حماس، ومن تمدد نفوذ المطرود من حركة فتح، محمد دحلان، في الحركة وخارجها، فقد استقبله وزير الخارجية الروسي، لافروف، في مكتبه بموسكو في نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي. وأظهر مؤتمر عقده جناحه المسمّى «التيار الإصلاحي» في غزة اتساع التأييد له داخل «فتح»، نتيجة ضعف عبّاس، والمساعدات المالية والعينية التي يوزعها هو والإمارات في غزة، والأهم أن حركة حماس مستفيدة تماماً من توفير كل الإمكانات والتسهيلات له، فيما تعرقلها لحركة فتح والفصائل الفلسطينية الأخرى. وليس هذا سبباً رئيساً، لكن «فتح» مقسومة على نفسها، خصوصاً بعد إقصاء قادة مؤثرين وبارزين، خصوصاً من المقرّبين للقائد الفتحاوي الأسير، مروان البرغوثي، الذي يحظى باحترام وتأييد شعبي مقابل شبه انعدام الثقة بصدقية عبّاس والسلطة الفلسطينية، لكن الصراع على سلطةٍ لا سلطة حقيقية لها العامل الأبرز في تحرّكات السلطة ومنافسيها، بما في ذلك حركة حماس، فمن زيارة رئيس المكتب السياسي للحركة، إسماعيل هنية، الرباط بعد خطوات تطبيعية لم يعترض عليها حزب العدالة والتنمية (الإسلامي)، إلى محاولة إضعاف «فتح» من طريق التعاون مع دحلان، يتضح أن التمسك بالسلطة، بل والاستيلاء عليها أيضاً، هي اللعبة الأبرز، في تفريطٍ واضحٍ لمكتسبات المقاومة خلال العدوان الإسرائيلي على غزّة في مايو/ أيار الماضي.

> أن يزور عبّاس وزير الحرب الإسرائيلي، غانتس، في منزله، فهذه خطوة فاقت كل خطواته الماضية للاحتفاظ بالسلطة

ولكن أن يزور عبّاس وزير الحرب الإسرائيلي، غانتس، في منزله، فهذه خطوة فاقت كل خطواته الماضية للاحتفاظ بالسلطة، وإن جرت تحت ضغوط أميركية، وفي غضون تصعيد إسرائيلي في تدمير المنازل الفلسطينية وتوسيع المستوطنات في الأراضي الفلسطينية المحتلة. ولكن وهم أن الزيارة ستضع حدّاً لتسارع مخطط بلع الأراض الفلسطينية إما خداع للنفس وإما محاولة فاشلة لما تراه السلطة من محاولات إسرائيلية، وربما عربية أيضاً، لإطاحتها وإيجاد بديل، فإذا كانت الرسالة من الزيارة أن لا بديل للسلطة، فإن في هذا استخفافاً بالقضية والشعب الفلسطينيين، أي إنها الوحيدة التي تستطيع السيطرة على الشعب، وتُمعن بنثر ملح الإهانة في الجرح الفلسطيني.

كان ممكناً اختصار المقال بالقول إن السلطة لا تمثل الشعب الفلسطيني، ولكن إلى حين ظهور قيادة جديدة تنقذ المشروع الوطني، فإن لأي خطوة يقوم بها عبّاس تداعياتها، والمهم تذكير السلطة بأن الانتفاضات الفلسطينية لا تبدأ بكبسة زر منها أو من غيرها، وأن بروز قيادة تحرّرية مسألة وقت ليس أكثر. ولكن إلى أن تتغير الظروف، في ظل تسارع التطبيع العربي الإسرائيلي، فإن مقاومة الشعب الفلسطيني، كما تدل الهبّات الفلسطينية المستمرّة، هي القوة المحرّكة على الأرض رغماً عن أي قوة أخرى. المحزن أن الزيارة جاءت قبل أسبوع من ذكرى انطلاقة حركة فتح والمقاومة المسلحة، ولكن لقيادة تهمّش عمداً الحركة حسابات أخرى. وفي النهاية، كما انطلقت فتح ضد الصمت والنكبة، وكما أثبتت هبّة نيسان أخيراً، إن قيادة جديدة لا تساوم قد أسمعت صوتها للعالم، وهو صوت لن يخفُت.

وضع السلطة ضعيف (يفغيني بيا توف/Getty)

(كاتبة من الأردن)

السلطة وتكريس الوظيفة الأمنية

حسام كنفاني

أي غاية كانت وراء الزيارة «الودية جداً» التي قام بها الرئيس الفلسطيني محمود عباس إلى منزل وزير الحرب الإسرائيلي بيني غانتس قرب تل أبيب؟ سؤال يراود الكثيرين منذ الإعلان عن هذه الزيارة من دون ترتيبات مسبقة، خصوصاً مع ما تسرب عنها من معلومات، على الأقل عبر الصحافة الإسرائيلية، تصب كلها في المجمل في خدمة الأمن القومي الإسرائيلي، من دون أن ينال الفلسطينيون، أو ممثلوهم، أي مكاسب، باستثناء ما أُعلن عن منح بعض الإقامات وبطاقات الشخصيات المهمة، وهي مكاسب شخصية عموماً، إضافة إلى بعض أموال الضرائب التي تحتجزها دولة الاحتلال، وهي حق للسلطة الفلسطينية، وليست هبة من غانتس لأبو مازن. يمكن القول، وبناء على التسريبات والمعطيات، أن عنوان الزيارة الأساس كان «تحذير إسرائيل من انفجار قادم». هذا ما أوردته الصحف في الدولة العبرية، إذ إن أبو مازن تحدث عن «مخططات» لحركتي «حماس» و«الجهاد الإسلامي» لتفجير الوضع في الضفة الغربية. وهو بالتأكيد أبدى معارضة شديدة أمام غانتس لهذه «المخططات»، إن وجدت، وتعهد بتكثيف التنسيق الأمني مع دولة الاحتلال لمنع تنفيذها. وعلى هذا الأساس خرجت المصادر الإسرائيلية لتصف الزيارة بأنها كانت «مهمة جداً لأمن إسرائيل».

لم يخرج أحد من السلطة الفلسطينية لينفي المعلومات والتسريبات، بل على العكس فإن تصريحات وزير الشؤون المدنية الفلسطيني حسين الشيخ أكدت فحوى هذه المعطيات. إذ رأى الشيخ، في تغريدة نشرها على حسابه في تويتر، أن لقاء عباس مع الوزير غانتس هو «تحدٍ كبير، والفرصة الأخيرة قبل الانفجار، والدخول في طريق مسدود». إذن فإن الزيارة فعلاً «تحذيرية» لكن ليس مما يمكن أن تفعله السلطة الفلسطينية، بل مما قد لا يمكن لهذه السلطة أن تمنعه رغم رغبتها في ذلك، وهو ما أبداه عباس صراحة. فالأخير طالب غانتس بالعمل على وقف اعتداءات المستوطنين اليومية في الضفة الغربية، ليتمكن هو في المقابل من ضبط الشارع وإحباط «مخططات تفجير الوضع» في الأراضي المحتلة.

هي خدمة مقابل خدمة للحفاظ على استمرارية السلطة الفلسطينية وقدرتها على القيام بوظيفتها كخط دفاع أول للأمن الإسرائيلي عبر التنسيق الأمني الذي أصر عباس خلال اللقاء على أنه سيستمر فيه ولن يتخلى عنه، رغم التجاهل الإسرائيلي التام لكل مطالب السلطة الفلسطينية وآمال أبو مازن بالمفاوضات والتسوية. فالرئيس الفلسطيني، وبحسب التسريبات أيضاً، أبلغ غانتس أنه يدرك أن الائتلاف الحكومي الإسرائيلي الهش لا يسمح لهذه الحكومة في الخوض بمفاوضات مع الفلسطينيين في الوقت الراهن. وأيضاً لم يخرج أحد لينفي معلومات كهذه، لتكون التصريحات اللاحقة لحسين الشيخ ومن ثم محمود عباس فارغة من أي مضمون حقيقي من الممكن تطبيقه. فوزير الشؤون المدنية الفلسطيني، وفي التغريدة نفسها التي تطرق فيها إلى «الانفجار»، تحدث عن أن اللقاء كان «محاولة جدية جريئة لفتح مسار سياسي يرتكز على الشرعية الدولية، ويضع حدا للممارسات التصعيدية ضد الشعب الفلسطيني». وأول من أمس، وفي خطاب بمناسبة الذكرى الـ57 لانطلاقة حركة فتح، أعاد الرئيس الفلسطيني الحديث عن مؤتمر سلام، وهو الذي تطرق إليه في أكثر من مناسبة، إذ قال «نمد أيدينا لصنع السلام العادل والشامل وفي إطار مؤتمر دولي يُعقد وفقا لقرارات الشرعية الدولية، وبرعاية الرباعية الدولية بهدف إنهاء الاحتلال لأرض دولة فلسطين بعاصمتها القدس».

ما بين التصريحات العلنية لعباس وحسين الشيخ حول السلام، وما بين التسريبات التي تشير إلى أن أبو مازن مدرك استحالة استئناف المفاوضات، فإن الزيارة «الودية» لا تبدو مرتبطة بأي فتح للأفق السياسي، بل هي تكريس لواقع الوظيفة الأمنية للسلطة الفلسطينية وتأمين مقومات صمودها إسرائيلياً، وهو ما يبدو أن غانتس حققه لعباس.

سورية... مصالح روسيا وإيران

فاطمة ياسين

يعد ميناء طرطوس المنفذ البحري الوحيد الذي تستطيع روسيا استخدامه بحريةٍ مطلقةٍ خارج نطاق دول الاتحاد السوفييتي السابق، ففي العام 2019 وقّع نظام الأسد مع روسيا اتفاقا يمكّن الجانب الروسي من استخدام ميناء طرطوس لمدة تصل إلى 49 عاماً، وتكون لروسيا السيادة السياسية والقضائية على الميناء، ويمكنها أن تنشر فيه العدد الذي ترغب فيه من السفن، ويشمل ذلك السفن النووية.. بينما الميناء الآخر الواقع إلى شماله، على بعد 90 كم، في اللاذقية، تشغله إيران جزئياً، وتوجد فيه بشكل مؤثر، إذ تحرّكت إيران بشكل جدي، حين انتهى العقد المبرم، بين ائتلاف شركة فرنسية لتشغيل خطوط النقل البحري وإدارة محطة الحاويات مع شركة «سوريا القابضة» لصاحبها هيثم جود في 2019، لتضع يدها على إدارة ساحة التخزين الرئيسية في ميناء اللاذقية.

ولقي الاتفاق اعتراضاً روسياً بسيطاً لقرب الميناء الشديد من قاعدة الوجود العسكري الجوي الروسي في حميميم، خصوصاً أنّ هذه القاعدة تعرّضت أكثر من مرة لهجوم من طائرات درون مجهولة المصدر، لكنّ الاعتراض اختفى بعدما حصل الروس على حصّتهم البحرية في طرطوس، وبعد عدة لقاءات بين مسؤولين روس وإسرائيليين، جمع أحدها فلاديمير بوتين وبنيامين نتنياهو، وتضمّنت وقوف روسيا على الحياد، في حال قرّرت إسرائيل القيام بهجمات ضد أهداف إيرانية في سورية.

أدارت إيران، وبشكل رسمي، ساحة تخزين الحاويات الرئيسية في الميناء، على الرغم من قلة السفن الراسية هناك بعد بداية الحرب، لكنّ الجانب الإيراني وجد نفسه على منفذٍ مباشر على البحر المتوسط، استغله لصالح سياسته المعروفة، وإحكام سيطرته على ما يستطيع ابتلاعه من الأرض السورية، خصوصاً بوجود منافس روسي صلب وعنيد.

تلقت الأراضي السورية في العام السابق وحده حوالي 30 هجوماً إسرائيلياً على أهداف سورية وإيرانية، بمعدل هجومين إلى ثلاثة في الشهر، ما يعني أنّ النشاط الإيراني داخل الأراضي السورية تتابعه إسرائيل وبشكل دقيق ومنظم، لكنّ ميناء اللاذقية الذي أصبحت إيران تشغل قسماً مهماً منه، وبشكل رسمي، لم يتم الاقتراب منه إلّا مع بداية شهر ديسمبر/كانون الأول الماضي، فقد تعرّض الميناء، وبالذات قسم ساحة تخزين الحاويات الذي تديره إيران، إلى هجمتين، قيل إنّ الهجمة الثانية كانت واسعةً ومدمرة بشكل كبير، وقد حفزت شدّة الضربة جزءاً من جمهور النظام والإيرانيين على توجيه اللوم للجانب الروسي الذي يوجد بكثافة في سورية.

لا يجيد جمهور النظام القراءة، أو أنّه يتقصد توجيه رسائل محرجة إلى روسيا التي اكتفت بتبرير هزيل، وكأنّه يريد حرف اللوم عن الجهة التي يُفترض عليها حماية مصالحها، وهي إيران، ربما طمعاً منه بقدرة الروس، لكن في الواقع فميناء طرطوس الذي انتقل عملياً إلى إدارة روسيا لم يُمسّ، وتحرص روسيا على تطويره، ولا تخفي خططها اللوجستية والتوسعية التي تنوي القيام بها في الميناء من دون أن تتعرّض لهجمة إسرائيلية واحدة، فيما يتعرّض ميناء اللاذقية للقصف المركّز مرة بعد مرة، وهو، كما سبق القول، مكان مهم لوجود القوات الإيرانية، فمن الأوْلى أن يحمي الإيرانيون امتيازاتهم، وليس من مهام الروس الدفاع عنهم أو الردّ على أي هجوم يستهدف وجودهم. أما سورية المستباحة فيتملكها القوي ويفرض نفسه، وهو القادر بوضع اليد على ذلك، بعد الغياب الرسمي للدولة التي لا تقوى على أية مواجهة، وعلى كلّ مستفيدٍ من الوجود في سورية أن يحمي ممتلكاته... هذه الرسالة القصيرة والمباشرة التي تريد روسيا أن تقولها من خلال الاكتفاء بمشاهدة آثار الدمار في ميناء اللاذقية.

عَقْلَنَة المَكان... من قَحْط الحِمَى إلى بِنَاء وَطَن

خالد الجبر

الإنسان ثالث ثلاثة في جدلية «الإنسان - المكان - الزمان»؛ فالزمان وصف لحركته في المكان، وهو (الإنسان) نتيجة حتمية عند النقاد التاريخيين، من سانت بيف إلى هيبوليت تين، لثلاثية: «البيئة، العصر، العرق»؛ إنه ابن عصره وبيئته وعرقه، ولا يمكنه تجاوز تأثيراتها التي تشكله. وإذا صح ذلك، وهو صحيح في رأي الكاتب، فإن النظر إليه مجردا من آثار علاقته بالمكان والزمان إخلال حقيقي بكل ما ينتجه ذلك النظر من أفكار أو أحكام أو تصورات. والاستثناء التجاوزي لمقولة «العرق» ليس طيا لأثره، إنما إنكار أخلاقي لقولة «النقاء العرقي» التي تجاوزها الواقع، ورفض منهجي لمحاولة آرنست رينان تصنيف العقول والشعوب. هكذا، تغدو حركة الإنسان في المكان تاريخا له، وللمكان، وللحركة نفسها. وإذا كنا نقارب المسألة من باب الذات الجمعية (الأمة)، فليس معنى ذلك إهمال رؤى الذوات الفردية التي تعكس في مجموعها رؤية الأمة، وتكشف عن القار الثاوي عميقا في «عقليتها» من تصورات ومفاهيم وأحكام ومواقف هي ثقافتها ووجدانها والبرنامج العقلي والنفسي الذي يؤطر سلوكها في الحاضر.

وبين ذاتية المكان (صورته النفسية الماضوية)، وموضوعيته (صورته الواقعية الحاضرة)، انتصر العربي على مدار التاريخ للصورة النفسية، وهي صورة شعرية مجازية عبر عنها محمود درويش بقوله: «تلمع حبة الليمون قنديلا على ليل المهاجر. تسطع الجغرافيا كتبا مقدسة، وسلسلة التلال تصير معراجا». ولا تكاد تجد فارقا بين هذه الكثافة المجازية وقول الأعرابية الطائية تتشوق بلادها: «وأول أرض مس جلدي ترابها». إنه موقف يجسد الحنين إلى الماضي (الصورة النفسية). ومثلهما وطن ابن الرومي: «ولي وطن آليت ألا أبيعه»؛ فالذي يحبب المرء في وطنه: «مآرب قضاها الشباب هنالكا». وإذا كان الإيجاز يقتضي إطلاق «الحمى» على المكان عنوانا لصورته النفسية، فإنه يقتضي تسميته (الوطن) تجسيدا لصورته الواقعية، وهو تأسيس نراه رصينا.

يتصل «الحمى» بمفاهيم: الحماية، والحمية، والحماة... القائمة على الذود والرد والنخوة والانتصار لحمى القبيلة الذي هو كل أرضها ومالها ومائها وكلئها؛ كل ما فيه من بشر وشجر وحجر وماء وهواء وصيد، حاضرا بالراهن، وماضيا بالإرث مجدا وانتسابا، وثأرا وانتقاما، وحلفا وتكثرا. والعقد الاجتماعي القبلي قوامه: فرد يذوب في قبيلة تعده في مقام كلها؛ فإذا رأت رأى، وإذا عميت يعمى. وهو ما تؤشره غزية في قول دريد بن الصمة: «وما أنا إلا من غزية، إن غوت/ غويت، وإن ترشد غزية أرشد».

طالت علاقة العربي ببيئة صحراوية قليلة الماء والكلأ، يتتبعهما في حركته داخل الحمى. فإذا قلا فيه تحول إلى غيره. وحركته في الحمى جماعية؛ قد ينتقل الحي بأكمله، وقد تتشعب به الطرقات فتنشعب القبيلة شعوبا. والقحط سبب رئيس في الحركة، وهكذا مع كل موطن جديد لا يقيم فيه إلا ريثما يتحول. هذه الحركة كانت ضرورية لمواجهة وطأة الزمان الذي يأتي على الأعمار فيهلك، لكنها أيضا تجسيد لإفناء مقدرات المكان، ولولا ذلك لأقام أهله ولم يغادروه.

وثمة صور مغايرة لهذا التصور في البيئة العربية، لكنها نادرة؛ فثمة قرى نشأت عن استقرار مجموعات من شظايا قبائل، شكلت في ائتلافها تجمعات من شتات؛ كيثرب التي سكنها بعض اليهود، وبعض الأزد (الأوس والخزرج)، وبعض مهاجري قريش. ولولا عمل أكثر أهلها في (الزراعة) لما أقام هؤلاء مجتمعا. والأمر في مكة شبيه: استوطنتها فروع من عدة قبائل حول ماء زمزم، وأطافت بالكعبة، واستحضرت فيها نماذج مكبرة من أصنام العرب لتكون مهوى أفئدتهم، وعملت في التجارة، وأقامت أسواقا في الطائف وغيرها، وموسما جامعا (الحج). هذه أمثلة على بيئات قابلة للاستقرار؛ نميت فيها الموارد بالزراعة أو التجارة والأسواق. وفي غيرها كان العربي يقيم حتى «يقحط المكان» هو وأنعامه، ثم يغادره، وحينما يقرصه الحنين يمر به ويقف صحبه وناقته، ويبكي ذكرياته.

ومع أن بعض العرب مارسوا التجارة والزراعة، فصورة العربي الراسخة هي أنه: بدوي يرتحل، بيته غالبا من شعر أو وبر أو شجر، ونادرا من مدر أو حجر، بما يعكس نمط حياته، وأنه يأنف من المهن، وجل عمله: الصيد، والتجارة، والغزو، واستخدام الرعاة لتنمية ثروته الأصيلة: الإبل. وهي ثروة تستلزم الانتقال تبعا لوفرة الماء والكلأ. ومثل المرعى ونباته، والإبل بتفاصيلها ونتاجها وأطوارها، والحيوان مفترسا ومصيدا وركوبة، والمياه والرياح وأنواء السماء- الحقول الكبرى من معجم العربي في ذلك الزمن، وصحبه معجمه هذا حين تكونت الحواضر، وتأسست الدولة.

كان كل له حصته من الماء والكلأ في الحمى، بلا تنمية للموارد إلا بالتناسل والصيد. واقترنت الخيل بالإبل، هذه للصيد وحماية للحمى وغزو غيره، وتلك عداد الثروة، وللنقل والارتحال. وهي وسائل الإنتاج الأصيلة، فمن امتلكها، وامتلك العدد الكافي للحماية والغزو كان من «جمرات العرب». والناقة: يحلبها، ويستولدها، ويتنقل عليها، حتى إذا أسنت وانقطع نتاجها، نحرها، فأكلها، واستعمل وبرها وجلدها بما تقتضيه طبيعة الحياة. حتى مكة التي استدرت قريش فيها ثروات الحجيج بالمناسك والتجارة، تقاسمت عشائرها الثروة والصلاحيات، وكان جهد «ناديها» الذي ضم ممثلي العشائر تنظيم توزيع الثروة، وتقاسم الصلاحيات. وفي التاريخ روايات كثيرة تصف صراعات طويلة في المدينة بين الأوس والخزرج واليهود، وفي مكة بين مكوناتها القبلية... أوجز عبارة يمكن وصف المشهد بها: استنزاف الموارد الطبيعية بالدرجة القصوى.

ولم يختلف الحال كثيرا حين امتد العرب خارج الجزيرة؛ فقد ظلت القبائل في جيوش الفتوح ماثلة، وتقاسم أبناؤها البلاد المفتوحة وأقام كل في حماه. اصطحبت القبيلة ثقافتها معها، وإن تحورت بدخولها في الإسلام، واستيطانها بلادا وفيرة الموارد. وتصف الروايات محاولات عسيرة مارسها العربي البدوي للتأثير في ثقافة الحواضر كالكوفة والبصرة وبغداد. توسعت بضاعته قليلا لتشمل الثقافة، فأصبح يلقي النوادر والأشعار والطرائف مع ما يبيعه. وحينما ترسخت الدولة، وتقبلت المتعربين بالثقافة، ضج أولئك، وثارت الشعوبيات، ودافع مثقفون كالجاحظ عن العرب قبالة الشعوبيين، واختار المفضل وغيره قصائد من شعر العرب تؤكد القيم البدوية في الحياة الجديدة.

ولم تكن الدولة الناشئة دولة تنمية موارد وابتداع وسائل إنتاج جديدة. غاية ما في الأمر: استنزاف الموارد الجديدة بالخراج والضرائب والرسوم، في دولة ريعية كالقبيلة في حماها استقطبت الحرفيين وأهل الصنائع، وأقامت أسواقا كبرى ضمت الصفارين والعطارين... وتأسست فيها المكتبات ودور العلم والعبادة والمستشفيات، وصارت لها تجارة مع دول أخرى... لكن العقلية النافذة فيها لم تتجاوز قولة هارون الرشيد: «أمطري حيث شئت، فإن خراجك عائد إلي». ظل كل يريد حصته من الدولة، ومن ثروتها، وظل السلطان (شيخ القبيلة) يعطي ويمنع. لا تنمية للموارد ووسائل الإنتاج، إنما استنزاف للمكان كله.

> يتصل «الحمى» بمفاهيم: الحماية، والحمية، والحماة... القائمة على الذود والرد والنخوة والانتصار لحمى القبيلة الذي هو كل أرضها ومالها ومائها وكلئها
>
> التحول من مفهوم الحمى إلى مفهوم الوطن يشبه الانتقال إلى الديمقراطية في المجتمعات التي عرفت لونا واحدا من ألوان الحياة السياسية

والتحول من طور ارتبطت فيه العقلية العربية بمفهوم الحمى إلى طور يقارب المكان بصفته وطنا يحتاج إلى عكس ما تقدم، والبناء على مقتضيات هذا التحول. المسافة بين الحمى والوطن ليست مستحيلة الاجتياز في الواقع، لكن عسرها كامن في الأذهان. وأهم هذه المقتضيات تغيير النظرة إلى المكان، أي: عقلنة المكان؛ ليصبح منظورا إليه في واقعه الحاضر، وما يمكن أن يصبح عليه في المستقبل: موقعه الجغرافي والسياسي، وحدوده، وساكنوه، وثرواته، وتنمية موارده البشرية والطبيعية، والدفاع عنه، ومنظومة العلاقات التي تجمعه بمحيطيه: القريب، والبعيد، وحسن إدارة هذا كله.

تأسيس الوطن، بالانتقال من مفهوم الحمى، لا يمكن تحقيقه من دون تأسيس الوعي العميق بالمجال العام، وتمايزه عن المجال الخاص، مع الإيمان بالعلاقة الجدلية بينهما؛ إذ العام فيه مصلحة الخاص، ولا بد للمرء من التنازل عن جزء أساسي من خاصه ليتكون العام، فهو يسهم في تكوينه، وفي حمايته، ويمنحه بما يعود عليه نفعه. وبذلك تختلف النظرة إلى الوطن عن نظرة استنزاف الموارد، وانتظار الريع. الوطن ليلك، لا هو لي، ولا هو لك. والتنمية ليست بما توفره قوانين الطبيعة وثرواتها من تناسل بهائم، وفوسفات خام، ومعادن، إنما مهن وحرف ومهارات، وزراعة وصناعة، وتربية وتعليم وارتقاء بالعقول والوجدان، واهتمام بالبيئة الطبيعية والاجتماعية والعلمية والثقافية، وتمكين للإبداع والابتكار والاختراع، وتقدير للجهود ومكافأة بالاستحقاق... هذا إلى تعظيم الجوانب الإنسانية والحقوقية والتطوعية، وتشريع الباب للرأي والاختلاف والتنوع، وغلق الباب أمام الإقصاء والتهميش والصراعات الفئوية والإثنية والطائفية والمذهبية والدينية...

التحول من مفهوم الحمى إلى مفهوم الوطن يشبه الانتقال إلى الديمقراطية في المجتمعات التي عرفت لونا واحدا من ألوان الحياة السياسية، قائما على العنف والكبت والردع والاضطهاد والقوة المتسلطة. الاعتراف بالجميع، وفتح الباب للجميع للإسهام في بناء الوطن، وتقدير كل جهد يقدم في هذا السبيل، ومكافأته. من هذه النقطة الحساسة جدا يمكن البدء، وعليها يمكن البناء، حتى لا يكون الحنين وعكة صحية، ويبقى ألصق بالحاضر المجهد المثمر، لا الماضي (المتخيل) الحالم.

(خبير لغوي من الأردن)

مفارقات الوباء والانتباه الفائت

عمر الشيخ

يبدو أنّ النّاس لا تقرأ إلّا ما يطرحه زحام الأضواء في الميديا. لا ينتبهون، ربّما، إلى ما تؤجّله الأقدار من كوارث عامّة، يمكنها أن تفتك بنظام البشر على هذه الأرض. دليلان على ذلك؛ حين تكلّم الإعلام عن «ازدواجية المعايير» لدى البيت الأبيض في عهد دونالد ترامب، أخذ ناس كثيرون يبحثون عن رواية «1984» للبريطاني جورج أورويل، لفهم ما وراء ذلك من استخدام سياسيّ. وحين ضرب كوفيد-19 العالم، قبل عامين، هلع معظم العالم لقراءة رواية «الطاعون» للفرنسيّ ألبير كامي، بدافع المعرفة أو الفضول. إذاً، نحن بانتظار الكارثة حتى نعرف ماذا يمكن للأدب الإنسانيّ أن يستشرف من غوص وتفكيك للعوالم البشريّة جرّاء تلك المتغيرات العظيمة، نستند إلى الخيال والتحليل؛ هذه الثنائيّة التي تكوّن فنّ البناء والانهيار الدراميّ للأحداث. نلجأ للكتاب، لتجربةٍ رأت شيئاً في المستقبل - اليوم، حدثاً جللاً سوف يغيّر وجه الحياة كلّ بضعة عقود، إذ شبّه بعضهم إجراءات مكافحة كورونا القاسية بأنها تدجين آخر للبشر، وربما مؤامرة للسيطرة أكثر على المجتمعات، وذلك يشبه، إلى حدٍّ كبير، مصائر من عاشوا في الروايات تلك، إننا نسير وفق تطعيمنا بالخوف الإعلاميّ، نمشي مجدّداً على الأرض حاملين تطبيق «المرور الآمن» على جوّالاتنا، ذاك المرور المسمّى «شهادة التلقيح»، وكأننا تجاوزنا ما جاء في الروايات والسينما!

واليوم، تمرّ الذكرى الثانية لبداية انتشار كورونا الذي انطلق من الصين، البلاد العملاقة صاحبة القوة الاقتصاديّة المتشعّبة في العالم، المسيطرة تقريباً على كلّ شيء، ونحن طواعيةً قبلنا الكمّامة القادمة من هناك، قبلناها بدورها الطبي، ولتتجاوز حدود وجودها معنا، كي تصبح جزءاً من هويتنا، قبلناها بعيون مغمضةٍ عن أيّ وعي يمكن أن نجده في اتفاقيّة الهيمنة على حريتنا بشكل تدريجيّ، عيون لا ترى إلا الخوف، تماماً كما وضع ضحايا «العمى»، الرواية البرتغالي خوسيه ساراماغو الشهيرة. وهنا أيضاً أستشهد، متأخراً، بتلك الرائعة الأدبية التي انتقلت عام 2008 إلى السينما، لعلها تصل أكثر، لعلها تنشر وعياً ما، لكن العالم مصابٌ بلاهث «التريند»؛ بدايةً من نظرية المؤامرة ونهاية العالم، حتى الاستشهاد المنسوخ للقيم النظريّة في فهم الكارثة وإفناء الذات من أجل الجماعة، أليس ذاك الفهم هو بيت القصيد المطلوب للانتباه على معنى الحياة وشكل استمراريّتها، والتحكّم بأهواء الناس حسب السوق التجاريّة للاستهلاك البشريّ؟ الوعي المتأخر الذي نسعى إليه في أيامنا حالياً، مع تطورات كوفيد-19، قد لا يفيد بشيء طالما أننا تجاوزنا مرحلة اللقاح الإجباري، لا ينتبه قادة العالم إلى الوجع البشري بالطريقة المزعومة للتعاطف الذي يجب أن تبديه الدول الكبيرة تجاه قضايا الشعوب المضطهدة، إنما يبرمجون تلك النظرة إلى حراك سياسي لاستراتيجية مصالحهم في المنطقة؛ هذا تماماً ما تجسّد في سورية بصورة معاصرة، حين هدّد الرئيس الأميركي الأسبق، باراك أوباما، نظام الأسد بسبب استخدامه السلاح الكيميائي في الحرب الأهلية القائمة في سورية عام 2013. وفي ما بعد، وتأكيداً على سياسة الولايات المتحدة أمام المأساة السوريّة، أمر الرئيس السابق، دونالد ترامب، عام 2017، بقصف بعض المواقع العسكريّة التابعة للأسد وإيران في سورية، بعد استخدام جيش النظام السوري السلاح الكيميائي مرةً أخرى ضد السوريين، وهذا الأمر لم يتحمّله «قلب ترامب» حسب ما سخرت الصحف حينها! تمتلك الأوبئة الكيماوية التي تضرب في حياتنا اليوم القيمة الفعّالة ذاتها التي قد تمتلكها أزمات البشر من حروب وتهجير واعتقال وترهيب وتطرّف ديني أو عرقي، فالقرارات الكبيرة لا تتخذ إلا إذا كان في الأمر جدوى وفائدة لقوى تلك الأنظمة السياسية التي تحكم حياتنا، وإلّا ما تبرير هذا التمييز بين موت بطيء بسبب فيروس، وآخر ناتج عن قصف كيميائي أو غرق قوارب مطاطية لمهاجرين في طريق البحث عن حياة آمنة؟ إنّها القراءة الأكثر عبثيةً لأقدارنا في هذا العالم الموبوء بالأنانية والعنصرية والكذب؛ في مواجهة الانتباه المتأخر إلى انهيار مجتمعاتنا أمامنا ونحن نكتب مآسينا هنا وهناك من دون جدوى.

(كاتب سوري)

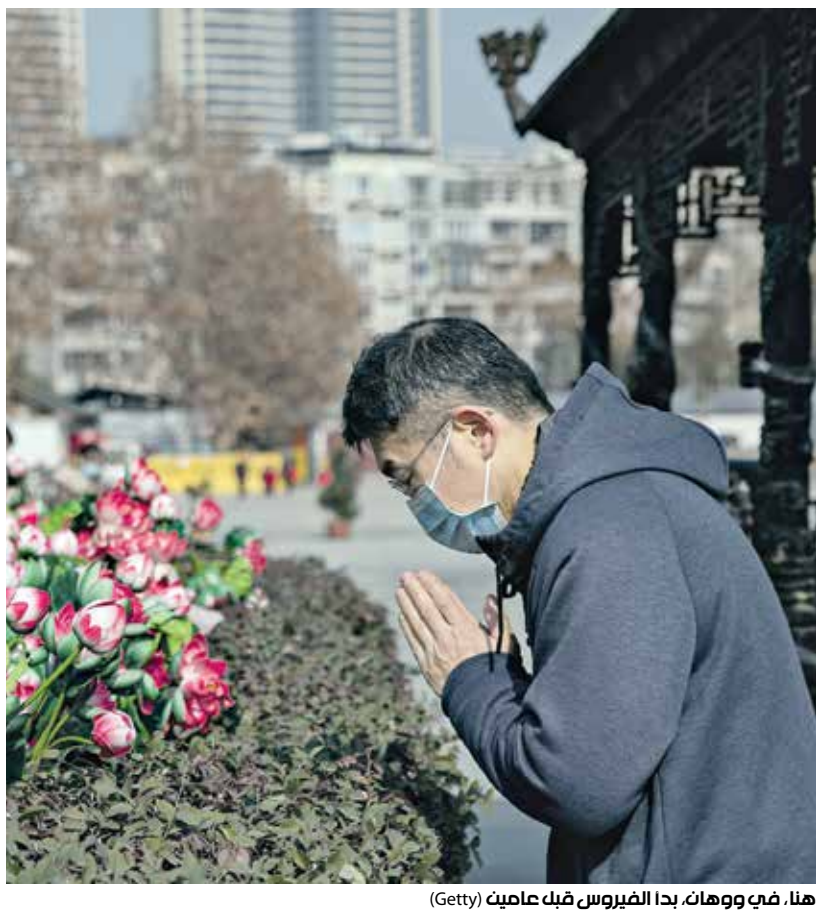

هنا، في ووهان، بدا الفيروس قبل عامين (Getty)

> الوعي المتأخر الذي نسعى إليه حالياً، مع تطورات كوفيد-19، قد لا يفيد بشيء طالما أنّنا تجاوزنا مرحلة اللقاح الإجباري
>
> لا ينتبه قادة العالم إلى الوجع البشري بالطريقة المزعومة للتعاطف الذي يجب أن تبديه الدول الكبيرة تجاه قضايا الشعوب المضطهدة

لنا البلدان المتقدّمة في التفكير بصوت عالٍ للتعبير عن ذواتنا. لقد حسم الأمر وباتَ انتباهنا إلى جدوى الحياة أكثر وضوحاً من قبل، ناهيك عن حمّى الاعتياد على طباع معينة، فإنّ في فهم المجتمع مع حالة القطيع شيئاً من التعدّي على الخصوصية، وترك كثير من البيانات مكشوفة وقيد الاستهلاك في أي مكان؛ مثلاً في المقهى ومتاجر البيع الكبيرة والمطاعم والدوائر الحكومية والمهرجانات؛ عليك أن تبرز «كود التلقيح» لتمرّ، وهذا المرور مؤقت، فالجرعة الثالثة من اللقاح في الطريق، بعد انقضاء ستة أشهر على الجرعتين السابقتين... لم يجدوا لنا سبلاً للتأكد من التطعيم ضد «كوفيد» أكثر أماناً لبياناتنا، كلّ شيء مدوّن وفي تلك البطاقة الخضراء التي تمثلك في رموز فقط.

نعيش اليوم تفاصيلنا بأشياء مشتركة مع ما قرأناه عن توقعات نهاية العالم وانتشار السوداويّة والكآبة، باليونانية «ميلانخوليا»، وهو عنوان فيلم عن كويكب يصطدم بالأرض وينهي الحياة. إضافة إلى انتشار الأوبئة الجماعيّ، ولكنّنا نصطدم بالواقع الذي هضم تقريباً معظم ما وصل إلينا ودوّنته الأقلام عن وقائع الألم المشترك، عن صور الوجود البشري المهدّد، فجأة ومن دون سابق إنذار، بالزوال! ولا أدري هنا هل يمكنني القول إننا نمتلك القدرة على التعايش مع الأوضاع الجديدة لحركتنا؟ وإذا افترضنا أنّه «تعايش»، فما هو مقدار المراعاة المرجوّة لاحتمالنا انتفاضاً مشابهاً على مستوى القبول بحرب على نحو آخر، ضد الإنسان، بأدوات أكثر نُعومة من الفيروس؟ حرب يديرها نظام سياسيّ عميق، أو قوى تكنولوجيا بوزن شركة «ميتا» المالكة «فيسبوك»، «إنستغرام»، «واتساب»، «ماسنجر»؟ يمكن قراءة مفردة «حرب» على أنّها فيروس أيضاً، ثمة من يقول إن الأرض تدافع عن نفسها ضد ما يشيده البشر من كوارث كيميائية ونووية وعسكرية ومناخية وبيئية تكاد توقف قلب الكوكب، وهذا مجرّد افتراض.

لا ينتبه قادة العالم أيضاً إلى الوجع البشري بالطريقة المزعومة للتعاطف الذي يجب أن تبديه الدول الكبيرة تجاه قضايا الشعوب المضطهدة، إنما يبرمجون تلك النظرة إلى حراك سياسي لاستراتيجية مصالحهم في المنطقة؛ هذا تماماً ما تجسّد في سورية بصورة معاصرة، حين هدّد الرئيس الأميركي الأسبق، باراك أوباما، نظام الأسد بسبب استخدامه السلاح الكيميائي في الحرب الأهلية القائمة في سورية عام 2013. وفي ما بعد، وتأكيداً على سياسة الولايات المتحدة أمام المأساة السوريّة، أمر الرئيس السابق، دونالد ترامب، عام 2017، بقصف بعض المواقع العسكريّة التابعة للأسد وإيران في سورية، بعد استخدام جيش النظام السوري السلاح الكيميائي مرةً أخرى ضد السوريين، وهذا الأمر لم يتحمّله «قلب ترامب» حسب ما سخرت الصحف حينها! تمتلك الأوبئة الكيماوية التي تضرب في حياتنا اليوم القيمة الفعّالة ذاتها التي قد تمتلكها أزمات البشر من حروب وتهجير واعتقال وترهيب وتطرّف ديني أو عرقي، فالقرارات الكبيرة لا تتخذ إلا إذا كان في الأمر جدوى وفائدة لقوى تلك الأنظمة السياسية التي تحكم حياتنا، وإلّا ما تبرير هذا التمييز بين موت بطيء بسبب فيروس، وآخر ناتج عن قصف كيميائي أو غرق قوارب مطاطية لمهاجرين في طريق البحث عن حياة آمنة؟ إنّها القراءة الأكثر عبثيةً لأقدارنا في هذا العالم الموبوء بالأنانية والعنصرية والكذب؛ في مواجهة الانتباه المتأخر إلى انهيار مجتمعاتنا أمامنا ونحن نكتب مآسينا هنا وهناك من دون جدوى.

(كاتب سوري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري**
■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads